مايكل روبرتس* : آدم سميث: داعية للسوق الحرة أم فيلسوف أخلاقي؟

ترجمة: مصباح كمال**

نشر النص الإنجليزي للمقال في موقع الاقتصادي الماركسي مايكل روبرتس بتاريخ 29 حزيران/يونيو 2023

يمكن قراءة النص الإنجليزي باستخدام هذا الرابط:

https://thenextrecession.wordpress.com/2023/06/29/adam-smith-free-marketeer-or-moral-philosopher/

يشهد هذا الشهر الذكرى الثلاثمائة لميلاد آدم سميث [1723-1790]. لا أحد متأكدٌ تمامًا من اليوم الذي ولد فيه سميث في شهر حزيران/يونيو 1723، لكن الاقتصاديين في جامعة جلاسكو[1] نظموا سلسلة من الأحداث والمناقشات حول أفكار سميث على مدار الشهر.

لقد أصبح آدم سميث مُعلِمًا لاقتصاديات الحرية الاقتصادية "laisser-faire" - الرجل الذي لجأ إليه اقتصاديو جامعة شيكاغو مثل جورج ستيجلر وميلتون فريدمان George Stigler and Milton Friedman كمرشد نظري لهما لـ "السوق الحرة". وقد أشاد به السياسيون اليمينيون المؤمنين بالسوق الحرة مثل مارجريت تاتشر حيث ألهمتهم لتبني سياسات تقليص حجم الحكومة والدولة و "السماح للسوق بالسيطرة" في جميع جوانب التنظيم الاجتماعي. وتطلع اقتصاديو السوق الحرة العالمية مثل فريدريك

[1] economists at the University of Glasgow organized a series of events and debates

هايك والمدرسة النمساوية لاقتصاديات السوق الحرة إلى سميث من أجل نهجهم الأساسي. حتى أن هناك "مؤسسة فكرية"[2] مقرها في المملكة المتحدة تدَّعي تطوير سياسة اقتصادية قائمة على مبادئ "السوق الحرة" الواضحة. شعارها هو "استخدام الأسواق الحرة لخلق عالم أكثر ثراءً وحرية وسعادة."

كتب سميث كتابين رائعين. الأول كان **نظرية المشاعر الأخلاقية** The Theory of Moral Sentiments عام 1759، والثاني، وهو الأكثر شهرة، **ثروة الأمم** The Wealth of Nations، الذي نُشر عام 1776. ونال بفضل هذا الكتاب الثاني لقب "أبو الاقتصاد". ومع ذلك، فإن أي شخص يقرأ كلا الكتابين عن كثب سيجد أن سميث لم يكن داعية للسوق الحرة ورافضًا لدور الحكومة أو معتبرًا أن الدافع وراء السلوك البشري هو المصلحة الذاتية المادية ولا شيء آخر.

كان الرأي الأكثر شهرة لآدم سميث يدور حول ما يسمى بـ "اليد الخفية للسوق من ثروة الأمم":

> "إن (كل فرد) بشكل عام، لا يهدف في الواقع، إلى الترويج للمصلحة العامة، ولا يعرف مقدار الترويج لها ... فهو لا يستهدف سوى تحقيق أمنه الشخصي؛ وإنه بتوجيهه للصناعة بطريقة ليكون إنتاجها ذا قيمة كبيرة، فهو يتقصد فقط تحقيق مكاسبه الخاصة، وهو في هذا، كما هو الحال في العديد من الحالات الأخرى، تقوده يد غير مرئية للترويج لهدف لم يكن جزءًا من نيته."[3]

يجادل سميث هنا بأنه بينما يتابع كل فرد نشاطه الاقتصادي الخاص، لا يدرك الفرد أن الجمع بين كل هذه الإجراءات الفردية ينتج سوقًا للإنتاج والاستهلاك لا يخضع لسيطرته ولكنه يقود بشكل

[2] a 'think-tank' based in the UK

[3] لم أستطع الوصول إلى الترجمة العربية للنصوص التي اقتبسها الكاتب عن آدم سميث، لذلك اجتهدت في ترجمتها للعربية. لعل العارفين بنصوص سميث يستطيعون تعديل الترجمة إن كانت دقيقة.

"غير مرئي" إلى نتيجة أفضل للجميع. يكمن وراء ذلك رؤية سميث العظيمة بأن الصناعة الحديثة تقوم على تقسيم العمل: عندما يتم تقسيم إنتاج السلع إلى أجزاء منفصلة حيث يتخصص العمل البشري بدلاً من قيام العمال بكل جزء من العملية، حيث ترتفع الإنتاجية وتهبط التكاليف والأسعار. يخبرنا ماركس عن الجانب المظلم لتقسيم العمل: إن اغتراب alienation البشرية يحول العمل الإبداعي إلى كدح وسخرة.

وعلى نفس المنوال، فإن الأفراد المتنافسين في السوق بالنسبة لسميث، سيحققون نتيجة مفيدة للجميع. ومن هذا المنطلق انبثق الرأي القائل بأن "الاستهلاك هو الغاية والغرض الوحيد لكل إنتاج؛ ويجب الاهتمام بمصلحة المُنتِج، فقط بقدر ما قد يكون ذلك ضروريًا للترويج لمصلحة المستهلك." هذا هو الأساس الكلاسيكي للاقتصاد الكلاسيكي الحديث: استنادًا إلى الأسطورة القائلة بأن المستهلك هو "صاحب السيادة." the consumer is ‘sovereign’.

كان سميث يعارض بشدة الاحتكار الذي كان شائعًا في عصره، وغالبًا ما كانت تسيطر عليه دولة ملكية فاسدة. لقد دمرت هذه الاحتكارات الصناعة وقللت المبادرة الريادية وبالتالي الإنتاجية والازدهار. وكان سميث يعارض بشكل خاص المذهب التجاري mercantilism، عقيدة التجارة الدولية حيث تحمي الدول صناعاتها وتكوّن الفوائض بدلاً من توسيع التجارة. وأوضح أن الحمائية تهزم نفسها دائمًا.

> "عن طريق البيوت الزجاجية والمستنبتات الدافئة والجدران الساخنة، يمكن زراعة العنب الجيد جدًا في اسكتلندا، ويمكن أيضًا صنع نبيذ جيد جدًا منها بحوالي ثلاثين ضعف تكلفة النبيذ المماثل في الجودة الذي يمكن استيراده من الدول الأجنبية. هل سيكون قانونًا معقولاً حظر استيراد جميع أنواع النبيذ الأجنبي، فقط لتشجيع صناعة نبيذ

كلاريت *claret* وبيرغندي *burgundy* [الخمر الفرنسي العنّابي] في اسكتلندا؟"

ولكن أنشأ دعاة الأسواق الحرة اليوم أسطورة أن سميث كان يعارض الحكومة والسلوك الأخلاقي على حساب المصلحة المادية. لكن الأمر على العكس تمامًا كما لخصه الاقتصادي في جامعة شيكاغو جاكوب فاينر[4] Jacob Viner في عشرينيات القرن الماضي:

"لم يكن آدم سميث من المدافعين العقائديين عن مبدأ الحرية الاقتصادية *laissez faire* [عدم تدخل الحكومة، وحرفيًا دعه يعمل]. لقد رأى نطاقًا واسعًا ومرنًا من النشاط للحكومة، وكان مستعدًا لتوسيعه إلى أبعد من ذلك إذا أظهرت الحكومة، من خلال تحسين معايير الكفاءة والصدق والروح العامة، نفسها منجذبة إلى مسؤوليات أوسع ... لقد كرَّس جهدًا لعرض قضيته من أجل الحرية الفردية أكثر من استكشاف إمكانيات الخدمة من خلال الحكومة ... (لكن) سميث رأى أن المصلحة الذاتية والمنافسة كانت في بعض الأحيان خيانة للمصلحة العامة التي كان من المفترض أن تخدمها، وكان مستعدًا ... للاعتماد على الحكومة لأداء العديد من المهام التي لا يستطيع الأفراد القيام بها أو لا يستطيعون القيام بها أو لا يمكنهم القيام بها إلا بشكل سيء. لم يكن يعتقد أن سياسة الحرية الاقتصادية [عدم التدخل الحكومي] كانت دائمًا جيدة أو كانت دائمًا سيئة. فهي تعتمد على الظروف؛ وبقدر ما يستطيع، أخذ آدم سميث في الاعتبار جميع الظروف التي يمكن أن يجدها."

لقد كان سميث يعارض بشدة العبودية.[5]

[4] جاكوب فاينر (1870-1892). اقتصادي كندي، كان من أوائل مؤسسي مدرسة شيكاغو الاقتصادية. [المترجم]

[5] كان آدم سميث متقدمًا في موقفه من العبودية وتجارة العبيد مقارنة ببعض أقرانه. كتب في مقال لي بعنوان "التأمين والعبودية: فصل بغيض في تاريخ التأمين الرأسمالي،" مجلة **الثقافة الجديدة**، العدد 398-399، تموز 2018:

"لا يوجد زنجي من سواحل إفريقيا لا يمتلك درجة من الشهامة والتي نادرًا ما تستطيع روح سيده الدنيء أن تفهمها. إن القَدَر لم يفرض سطوته أبدًا على البشرية بشكل أكثر قسوة مما كانت عليه عندما أخضعت تلك الأمم من الأبطال لخَبَث سجون أوروبا."

كان ماركس قارئًا دقيقًا لكتاب **ثروة الأمم**. وفهم مساهمة سميث في محاولة تطوير نظرية القيمة على أساس العمل. وكما قال سميث:

"العمل وحده، لذلك، لا يتغير أبدًا في قيمته الخاصة، هو وحده المعيار النهائي والحقيقي الذي يمكن من خلاله تقدير ومقارنة قيمة جميع السلع في جميع الأوقات والأماكن. إنه [العمل الذي يمثل] سعرها الحقيقي [سعر السلع]. وإن النقود هي سعرها الاسمي [سعر السلع]".

لكن ماركس استمر في انتقاد سميث لعدم الاتساق في نظريته حول العمل للقيمة، حيث عاد سميث إلى نظرية القيمة القائمة على "عوامل الإنتاج،" أي الريع لمُلاّك الأرض، والأرباح للرأسماليين والأجور للعمل، بدلاً من كون العمل هو الخالق لكل القيمة التي يستولي عليها المُلاك والرأسماليون.

لم يكن آدم سميث أيضًا مؤيدًا متشددًا للتجارة الحرة. كان موقفه دقيقًا في سياق الاقتصاد البريطاني في ذلك الوقت. فقد أيَّدَ قوانين الملاحة Navigation Acts- التي تنظم التجارة والشحن بين إنجلترا ومستعمراتها ودول أخرى - على الرغم من حقيقة أنها فرضت نقل البضائع على السفن البريطانية حتى لو كانت

"ولنا أن نشير بعجالة إلى أن المناخ الفكري في إنجلترا كان مناصراً لتجارة العبيد من خلال النظرة الدونية لغير البيض، كما هو الحال مع الفيلسوف التجريبي الإنجليزي جون لوك (1632-1704) الذي كان مساهماً في الشركة الأفريقية الملكية Royal African Company التي تخصصت في تجارة العبيد ومن ثم الذهب والعاج، والفيلسوف والاقتصادي والمؤرخ الأسكتلندي ديفيد هيوم (1711-1776). والسياسي والفيلسوف أدموند بيرك (1723-1792)."

الخيارات الأخرى أرخص. كتب في كتابه **ثروة الأمم** أن "الدفاع أهم بكثير من الثراء."

لقد كان شجب السياسات الأمنية المرغوبة باعتبارها "حمائية" خارج الموضوع آنذاك والآن. فبعد كل شيء، كان أمن الدولة الرأسمالية أكثر أهمية من السوق الحرة في التجارة الدولية. ويتم الإشادة بـ "السوق الحرة" فقط طالما أنها لا تقلل من ربحية المؤسسة.

(*) اقتصادي ماركسي بريطاني.

(**) كاتب في قضايا التأمين

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر. 30 حزيران 2023

http://iraqieconomists.net/ar/